أعلام وأعيان تلاميذ الهلالي من خلال لقاءات معهم في أماكن متعددة (8)

فضيلة الدكتور الشيخ الفاضل أبو الفضل محمد بن محمد بن عبدالجبار الموسوي [1]

وهو أستاذ جامعي، ورئيس مصلحة استقبال ضيوف الملك بوزارة الأوقاف المغربية.

كان اللقاء معه في خزانة مكتبته العامرة في الرباط في 6/ 3/ 1430هـ يوافق 3/ 3/ 2009م.

أول تعرُّفه علىٰ الهلالي في حوالي سنة 1962م كان في مدينة مكناس، رآه لابسًا قميصًا فوقه سترة، علىٰ رأسه غترة، حليق اللحية، ماسكًا بيده عصىٰ منعطفة، وكان طويل القامة.

ورأىٰ في «الجامع الكبير» خمس حلقات تلقىٰ من قبل علماء مكناس، وكان في الزاوية الهلالي، يسرد عليه قارئ من كتاب، والشيخ يشرح علىٰ طريقة المحدِّثين، فأعجبته الطريقة، وكان فيها أساتذة ومعلِّمون، وبعض الوجهاء والدهماء.

ورأيته يوصل بين الشفع والوتر بتشهد واحد، وهذا أمر غريب في ذلك الوقت علىٰ المغاربة قاطبةً، فسألت عنه؛ فقيل له: إنه الدكتور العالم محمد تقي الدين الهلالي القادم من العراق.

---

(1) وذكر الهلالي تلميذه محمد أبا الفضل في رسالة كتبها وهو في باريس بتأريخ 8 ربيع الثاني 1385 إلىٰ صديقه العلامة عبدالله كنون، وأفاد أنه سافر معه إلىٰ باريس ليتعلم اللغة الفرنسية هناك، قال له:

«وقد قدم قبلي بالقطار طالب في المعهد الإسلامي وفي دروسي بالجامع اسمه: عبدالجبار».

فترددتُ علىٰ مجلسه، ولازمتُ درسه سنة كاملة، وتعرَّفتُ علىٰ محمد الهلالي (ابن عم الشيخ الشقيق)، وعلمتُ أن الشيخ يحتاج لمن يقرأ له في الميكروفلم، فوقع اختياره علىٰ أبي الفضل، واتفقا ذات يوم أن يلتقيا الساعة السابعة صباحًا، ويصحبه إلىٰ الرباط لهذه المهمة، فتأخر بضع دقائق؛ فلم ينتظره الشيخ، وفي الأسبوع الثاني أنَّبه، وقال له: أنت مغربي أصيل! لا تحافظ علىٰ المواعيد؟ فقال له: غدرني النوم، فأجابه بقوله: أنت الذي غدرته!

ثم جدَّد معه لقاءً آخر، وتوجَّها إلىٰ الرباط في سيارة الشيخ، ووصلا إلىٰ كلية الآداب، والتقيا برئيس قسم المخطوطات، وقال الشيخ له: سأمتحن هذا الطالب في قراءة المخطوطات، فوضع له (الميكروفلم)، فقال الشيخ له: اقرأ، فقرأ له مدة خمس دقائق، ثم قال: كفىٰ، ثم ذهبا لتصوير المخطوط، فتوطدت العلاقة بين الدكتور أبي الفضل وشيخه الهلالي، وكان يدعوه إلىٰ بيته.

وهذا المخطوط الذي يقرأ فيه هو «الجواهر» للبيروني؛ ليترجمه إلىٰ الألمانية لأطروحته للدكتوراه، وكان يقرأ عليه المخطوط في بيته من صباح يوم الخميس إلىٰ صباح يوم السبت، ثم يعود الأسبوع المقبل.

وكان يعتمد في دروسه علىٰ «فتح المجيد» ويدافع عنه ويشرحه بما آتاه الله من علم وفقه، وكان اعتماده علىٰ هذا الكتاب سببًا في تقليص دعوته، ولو أنه اتخذ «الجامع الصحيح» للبخاري في تدريسه لكان أنجح وأنجع، وأغنىٰ وأثرىٰ؛ لأن البخاري محبوب عند الكافَّة، وكان متشددًا في دعوته، مما جعل النفور حليف بعض الناس، ولو كان ليِّنًا بالمدعوين؛ لانتشرت دعوته في جميع أنحاء المملكة.

ثم كان يعتمد في بعض فتاويه علىٰ ابن حزم، مما ألَّب عليه كثيرًا من الفقهاء والعلماء، من فاس وتطوان وتافيلالت –بلده– ومكناس.

ورغم ذلك، نظرًا لكونه كان مؤمنًا بما يقول، مخلصًا في دعوته إلىٰ التوحيد؛نشر اللهتلك الدعوة علىٰ ألسن كثير من الناس، فعمَّت الدَّار البيضاء، وأنبتت في تطوان نباتًا حسنًا.

ومن الطرائف في هذا الموضوع: أنَّه كان يتوضأ في المسجد الأعظم قصد الصلاة (العشاء) في رمضان، وإذا بالعادة والتقاليد لتلك المدينة أنَّ الزمَّار في المأذنة يزمِّر ... فتوقف عن الوضوء، وصار يشتمه ...!!

وطريفة أخرىٰ في الدعوة: أنَّه أصابته حمَّىٰ شديدة، فأدخل إلىٰ المستشفىٰ الإسباني العسكري، فجاءت الممرضة تمرضه، وعند خروجها قالت له: لعل (وتشير إلىٰ الصليب) هذا الصليب لا يزعجك؟ فقال لها: (إن كان يتكلم يزعجني)، وهذه تورية في أسلوب دعوته،وهو تحت المستشفىٰ الصليبي؛ فهو لم يكن مشفقًا علىٰ نفسه لمحاربة التثليثلتشبُّثه بالتوحيد.

وقد كَثُر جمهوره والمستجيبون لدعوته في الدار البيضاء؛ لأنها مدينة غير قديمة، وسكانها نقية أفكارهم، بخلاف مكناس وفاس وسلار ومراكش وتطوان؛ فهي عريقة ومليئة بالبدع المتنوِّعة والموروثة عن الشيوخ من قبل!

ويمتاز شيخنا الهلالي بميزة واحدة لا تتوفر في داعية عرفتُه وصحبتُه؛ وهي الجهر بالحق في وجه المبتدع أو المخالف، أيًّا كان منصبه!

هذه الجرأة جرَّت عليه بلاوي كثيرة؛ أذكر أنِّي كنت في ديوان قاضي القضاة وإمام المسجد النبوي، في ديوان عبدالعزيز بن صالح.

جمع ديوانُه ثلةً من القضاة، والفقهاء، والعلماء، وكانوا يتجاذبون أطراف الحديث، وبدؤوا في مسألة: الوقف الحسن والمكروه في القرآن الكريم، فكان القاضي يقول: ينبغي لقارئ القرآن وتاليه، أن لا يقف علىٰ بعض الآي، تأدبًا مع رب العزة تارة ...

وقاطعه الهلالي بقوله: المنهاج النبوي أفضل في الاتباع، وكان النبي –صلىٰ الله عليه وسلم– يقف علىٰ رأس كل آية، وضرب لذلك أمثلة.

فنهره القاضي وجلجل صوته!! فطلب مني أن نغادر، فقمنا وخرجنا من الديوان.

وكان ذات مرة ضيوفًا عند أحد رجالاتها، فقبل الغداءتكلم أحد الحاضرين –وهو تلميذه من قبل–؛ فتكلم كلمة اعتبرها الشيخ شركًا، ولم أشعر به وأنا جالس بجانبه حتىٰ انتفض قائمًا؛ وقال: تقول العرب: (أول الدَّنِي دُرْدِي)، وبدأ يأنِّب القائل ويسفِّهه.

هذه بعض الأمثلة، وهي كثيرة، وهي التي جعلته لا يستقر بمكان ما، وأن يجهر بالحق في أي وجه كان ...

ويقول الدكتور أبو الفضل عن فضائل شيخه:

إن المتتبع والناظر لشخصية تقي الدين الهلالي، ولاسيَّما الملازم له يجد أن تلك الشخصية لها فضائل كثيرة.

أول فضيلة أذكرها في هذا المقام: هو محافظته علىٰ أوقات الصلاة الخمس في الحضر والسفر، وقد رافقته طيلة ثلاث عشر سنة، ما رأيته ضيَّع صلاة الصبح بتاتًا!!

ورافقتُ الشيخ أبا بكر الجزائري، فعند المقارنة في المحافظة علىٰ الصلوات خاصة الصبح؛ شتان بين السيف والعصىٰ، وكان كذلك يحب العدل، وكنت معه في باريس وجيء لنا

بلحم طير دجاج سمين، وكنَّا نعيش علىٰ النَّواشف، فلما أردنا أن نتعشىٰ؛ قال لي: اقسم هذه الدجاجة بالعدل.

ولكن كنت أوثره عليَّ؛ فكنت أقسِّم له اللحم وأعطيه حتىٰ يشبع، ثم آكل، فشعر بذلك وأنَّبني، وقال لي: اقسم بالعدل؛ ألم أقل لك ذلك من قبل؟!

وكنت معه في بيروت سنة 1970م، فنهرني، واشتدَّ عليَّ، وقسا عليَّ، فاعتبرتُ ذلك ظلمًا منه لأني لم أخالف، فغضبتُ وأضربتُ عن الطعام، وهو لا يشعر بذلك، حتىٰ أخبره خادم الفندق، وقال له: هل ابنك هذا عليل لا يأكل؟!

فأدرك خطأه، وعلم أنِّي أضربتُ عن الطعام من أجل تسديده للفاتورة.

ثم خاطبني بلينٍ، وقال: لم أقصد ذلك، وإنما أردتُ أن أربِّيك تربية أطمأن عليها عندما ألقىٰ ربي، فأنت ترثني في هذا الخُلُق، فانشرح صدري، ففهمت أن الأب يأدِّب ابنه.

وجه الاستشهاد بهذه القصة: فضيلة رجوعه عن الخطأ، عندما يتبين له أنَّه أخطأ.

كذلك كان وفد عراقي يتناول الغداء في بيته في الستينات، فسأل الوفد العراقي عن علة تسمية هذا الشارع بهذا الاسم وما معناه؟ فأسررتُ في أذنه بالمعنىٰ، ولكن من فضله وفضائله لم يعزُ الكلام لنفسه، وهذا دأبه دائمًا؛ لأن دينه ومروءته تأبىٰ التعالم!

وما زال الدكتور محمد أبو الفضل يذكر بعض **وصايا شيخه الهلالي**؛ فيقول:

كان دائمًا يوصيني ويوصي بعض طلبته بقوله: [قدِّم حقَّ الله يقدِّم حقَّك]، [اتقِ الله يُخرج لك الرِّزق من الحجارة]، [حافظ علىٰ المواعيد أينما كنت].

ويقول في هذا الصدد –أيضًا–:

أوصاني بأمرين اثنين ونحن في بيته نصلي صلاة المغرب، فذات مرة بمنىٰ في الأربعينيات، وكان معه ولده عبدالمؤمن، فأردنا أن نصلي صلاة العصر؛ فإذا بعبد المؤمن يرىٰ وفد ولي العهد فيصل آل سعود، فقال ابني لي: يا أبتي أخِّر الصلاة حتَّىٰ يتسنىٰ لنا مصافحته، فقلت له: قدِّم حقَّ الله عليك ترىٰ العجب.

فصلَّينا العصر، فلما انتهينا، وجدنا سيارة ولي العهد تعطلت، فساعدناه علىٰ إصلاحها، فركبنا مع ولي العهد في سيارته الملكية ... فتأمل يا أبا الفضل...!

ويقول التلميذ عن **أعمال شيخه العلمية**:

لتقي الدين فتاوىٰ ضخمة؛ لو جمعت لجاءت في عشرات المجلدات، وهي أفضل ما كتب من الأجوبة علىٰ اختلاف أنواعها، وكانت تأتيه الرسائل من أنحاء العالم ولا يقعس عن الإجابة عنها، ويخصص لها يومًا لذلك.

لكن للأسف**!** ضاعت؛ لأنه باع مكتبته لكلية الشريعة بفاس، لكن للأسف الشديد**!** نُهبت، وكذلك الرسائل التي كانت بينه وبين الأساتذة وطلبته وعلماء المغرب، وبعض رؤساء الدول.

وهأنا ذا أتحفكم بأفضل مؤلَّف وهب نفسه لتأليفه؛ وهو «مختصر لصحيح البخاري»، لم يتممهلظروف خاصة، وقد أسماه: «الزند الواري والبدر الساري»[2]، وله فيه منهج جميل، بديع، ماتع، وقد اشتمل علىٰ (78) بابـًا و(240) حديثًا.

2() **قال أبو عبيدة:** اعتمدتُ علىٰ نسخة الدكتور الفاضل محمد أبي الفضل في نشر الكتاب في مجلدين ضخمين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ولفضيلة الدكتور الشكر الموصول علىٰ صنيعه، جعل الله ذلك في صحيفة عمله.

ويتكلم الشيخ الدكتور عن **الظروف التي منعت الهلالي عن تتميم بعض كتبه**:

كان يريد -رحمه الله تعالىٰ- أن يتمم هذا الكتاب؛ ولكن موانع كثيرة منعته من ذلك، لهذا نجده في آخر هذا «الشرح» يقول: «وهذا آخر ما يسر الله لي كتابته في شرح (كتاب الوضوء).

أسأله بفضله ورحمته أن ييسر لي إكماله، وأن ينفع به، ويجعلنا من الغُرِّ المُحَجَّلين».

وأحد هذه الموانع: افتقاده لكاتب دائم يلازمه، ويعينه علىٰ طبعه.

وأما عن **موت الهلالي** فيقول هذا التلميذ الوفي:

موت الهلالي كان رزيَّة للأمة الإسلامية عامة، والمغربية بخاصة؛ فقد نعاه كثير من الناس عند موته.

وتحقق فيه قول أحمد بن حنبل: (بيننا وبينكم يوم الجنائز)، وشيَّع جثمانه -رحمه الله تعالىٰ- جماهير غفيرة، وبكته أعين كثيرة، وتأسَّفت عليه أمم أكثر، وكانت جنازته فريدة من الجنائز التي تُرَىٰ وتُحضَر!!

وقدَّر الله له أن تصلَّىٰ عليه وعلىٰ جثمانه صلاة الغائب بالحرمين المكي والمدني.

وأما عن **آخر أيام الدكتور أبي الفضل مع شيخه الهلالي**؛ فيقول عنها:

قبل وفاته بيومين؛ زرته في غرفته التي يمرَّض فيها، وكان يئنُّ كثيرًا، ولا يكاد يُظهر ذلك، فلما دخلتُ عليه؛ طلب منِّي إشارة أن أجلسه، فأجلسته، وجلستُ أتحدَّث معه عن الماضي الحافل بالجهاد في الدعوة، ورحلاته الكثيرة، فَسُرَّ بذلك كثيرًا، فكنتُ أفهم بعض كلامه وأكثره لا أفهمه، وبقيتُ معه ساعتين كاملتين وهو فرح مستبشر، ثمَّ ودَّعته، فقالت لي

زوجتي عند خروجها من آل بيته: تقول زوجته: إنه طيلة شهر كامل لم يسكت، حتىٰ دخل عليه أبو الفضل، فسكت من الأنين.

وبعد يومين نعي إلينا وفاته، فرحمه الله –تعالىٰ– رحمة واسعة، وذهبتُ وزرتُ قبره، وترحمتُ عليه، طيَّب الله ثراه، وجمعنا به في الجنان؛ آمين.

ويقول أبو الفضل عن **عملنا في جمع مقالات الهلالي وإحياء تراثه**:

عمل علمي رائع، ويجازىٰ عليه ويثنىٰ عليه، فجزاه الله خير الجزاء، فهو قد ردَّ للهلالي حقَّه ومكانته التي هضمت في المغرب**!!**

وأذكر أنِّي حضرتُ مع الهلالي كثيرًا من اللقاءات جمعته بالألباني –رحمهما الله– يتناقشان إلىٰ حدِّ الجدال، ثم يثني كل واحد علىٰ الآخر ويمدحه ويعلن بمحبته، رحمهما الله **–تعالىٰ–**[3].

وقد أفادني فضيلة الشيخ محمد أبو الفضل –وهو عضو مجلس علمي بمكناس– أنه لازم الهلالي ثلاثة عشر سنة، ولازمه في السفر والحضر، وسافر معه إلىٰ أوروبا، ورافقه في آخر سفراته إلىٰ بلجيكا.

وعلاقته بشيخه قديمة ووطيدة؛ فهو مرافقه إلىٰ الجزائر في الستينات، وبعدها إلىٰ بيروت، ومنها إلىٰ فرانكفورت، ومنها إلىٰ النمسا، قال: «حبسونا في المطار، أعطونا التلقيح، وقبلها (الفيزا)».

3() إلىٰ هنا انتهت مقابلة أخي الأستاذ أيوب بولسعاد مع فضيلة الشيخ محمد أبي الفضل.

وقال –أيضًا–: كتبتُ له كتابه «أحكام الخلع»، وقال: وقعت له مشكلة مع الأستاذ عز الدين بليق، وزرنا محمد علي الطاهر، وغدَّانا، وذهبنا إلىٰ بليق، وأخذ حقه منه حالًا.

وقال ضمن ذكرياته: حضرتُ مع شيخي الهلالي مأدبة غداء مع محمد أمين الحسيني في الجبل في بيروت، وحضر معنا الأستاذ زهير الشاويش، ومحمد علي الطاهر، وسأل الحسينيُّ الهلاليَّ: كيف كان موقفك عندما كان يلتقي بك هتلر؟ قال: لما كان يراني يندهش، ولا يتكلم، وقلت له: هل يمكن لك –أيها الزعيم– أن تساعد أهل فلسطين في قضيتهم؟ قال: ممكن. وقال الهلالي: ما سبق أن رآني هتلر إلا واحترمني.

ويحدِّثنا أبو الفضل عن علاقة الهلالي مع شيخنا الألباني؛ فيقول: زار الهلالي الألباني مع حماد الأنصاري إبَّان وجوده في المدينة النبوية، وأخذوا يتكلَّمون علىٰ مسألة الإقامة في المدينة، وعلىٰ حديث: «**من صلىٰ أربعين صلاة ...**». واختلفوا في صحته، وكان نقاشًا حادًّا بين الثلاثة، واستمر النقاش، وأدركتنا الصلاة.

وذكر علاقة الهلالي مع قاضي المدينة وإمام مسجد رسول الله –صلىٰ الله عليه وسلم– الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ، ومشكلة ربيبته وخلعها من زوجها، وأنه كان يتذاكر مع شيبة الحمد ومحمد عطية سالم وجماعة من عِلية القوم بما فيهم الهلالي، وتكلموا في الوقف، وسنيَّته علىٰ رؤوس الآي، وإغلاظ الهلالي علىٰ الإمام!!

وأما عن **الأمور التي تعلَّمها أبو الفضل من شيخه الهلالي**؛ فهي كثيرة، وذكر من بينها:

1 – تعلمتُ منه أنه يستقبل الضيوف والتلاميذ والمقابلات في أي وقت كان، لا يوجد عنده وقت احترام.

2 – تعلمتُ منه: إنْ قلتُ (نعم)؛ التزمتُ!

أما عن **مراسلات أبي الفضل لشيخه الهلالي**؛ فكثيرة، وهي لا تخلو من فائدة، أو إشارة إلىٰ بعض القضايا الفقهية أو الإصلاحية، وتبدأ برسالة من تلميذ الهلالي محمد بن الطيب له؛ فيها ذِكْرٌ للهلالي، وفيها ما يفيد عن مراسلاته ومقالاته، وأخبار بعض الدعاة من تلاميذه، وأحوالهم، ومراسلاته لبعضهم، وتفيد الرسائل أن الهلالي راسل أبا الفضل وهو في المدينة، وأثبت الهلالي علىٰ بعضها من الخارج ما نصه:

«إلىٰ حضرة الأستاذ أبي الفضل محمد عبدالجبار، رئيس الوعظ والإرشاد بوزارة الأوقاف»، وعليها–أيضًا–: «الدكتور تقي الدين الهلالي ...، الدار البيضاء»، وفيها تحمُّس أبي الفضل لنشر قصائد ومقالات الهلالي، والرسائل جميعًا تدل علىٰ حب وحرص الهلالي علىٰ تلميذه هذا، ومتابعة أحواله، وتقديم الإرشاد والنصح له، وكان الهلالي يكتب له: «من هو بمنزلة والدك محمد تقي الدين الهلالي»،و«إلىٰ من هو في مقام الابن العزيز»، و«إلىٰ مقام الولد العزيز»، وقد أثبتناها –ولله الحمد– في كتابنا «مراسلات الهلالي» (2/ 517–528) و(3/ 529–544).